**من قلب الانتفاضة أصواتٌ فلسطينيَّة مناضلةٌ ومبدعة، تشارك في النقد لمصلحة الانتفاضة والقضيَّة والخير. لا تَخْشى التشكيك لأنّ حاضرها وماضيها ناصعان، ولأنَّها تَحْرص على المستقبل. والمجلة تَسْتكمل هذه الأصوات في العدد القادم.**

## أصوات من فلسطين الجديدة (١)

# تصحير الزهر*

عمر برغوتي**
ترجمة سماح ادريس

لوهلةٍ حاولتُ أن أَهْرب من الأخبار التي ما انفكّت تنتابني عن لعبة الصيد التي يمارسها الجنودُ بحقّ الأطفال الفلسطينيِّين، أو عن عائلة ثكلى جديدة تودِّع أحدَ أحبّائها الوداعَ الأخير. فقررتُ أن أذهب لزيارة قريتي الوادعة، «دير غسّانة،» شماليَّ رام اللّه. ولكنَّ خطّة هروبي فشلتْ فشلاً ذريعًا، لأنَّ الأخبار المثيرة للغضب لاحقتني.

فعلى الطريق روّعني مشهدُ شجرات زيتون «رومانيَّة» هرمةٍ لا حَصْرَ لها، مفصولةً بالمنشار عن جذوعها ومتروكةً لموتها، على التربة المحمرّة التي تَنْظر لا حول لها ولا قوّة نظرةً محدِّقةً لا حياة فيها. كنتُ أعلم كم هي عزيزةٌ تلك الشجرات على قلوب أصحابها؛ فغالبًا ما تتكلّم عمتي البالغةُ من العمر اثنيْن وثمانين عامًا ـ برهبة بل وتبجيلٍ ـ عن «رومانيّاتها،» وبعضُها يعود إلى زمن احتلال الصليبيِّين لفلسطين. هذه الشجرات ليست كسائر شجرات الزيتون المزروعة حديثًا؛ فجذوعُها متغضِّنةٌ بأخاديد متموِّجةٍ تعانق في ثناياها تاريخَ المكان كلَّه، كأنَّها وجهُ بحّارٍ قديم: وجهٌ يحكي عن لقاءاتِه التي يصارع فيها الموجَ، وعن الأزرق الذي لا نهاية له، وعن السيل الذي يتدفّق بين الفيْنة والفيْنة بالدمع والبركات. وكنتُ أعلمُ أنَّه لو قَطَعَ أحدٌ زيتونةً من زيتونات عمّتي الثمينة لنَدَبَتْها بحزنٍ بالغ.

وبينما كنتُ أحدِّق إلى مجزرة الأشجار بحدّةٍ قلتُ لنفسي: «الأشجار لا يُمْكن أن تكون أكثرَ قيمةً من البشر الذين يتساقطون كلَّ يوم. فلِمَ أشعر بمثل هذا العذاب، وكأنّي أمشي في واحدةٍ من تلك الجنازات الكثيرة التي مشيتُ فيها، هناك في رام اللّه، خلال الشهور القليلة؟» ثم قلتُ: «صحيح أنَّ البشر يستطيعون أن يعيدوا زَرْعَ الأشجار، ولكنَّهم لا يستطيعون زرعَ تلك التي عمرُها مئاتِ السنوات. إنّ قتل هذه الشجرات أشبهُ بإحراق كتاب قديم؛ إنَّه عملٌ شائن وبربريّ ويفتِّتُ القلوب.»

وإذ حاولتُ أن أضع الأمور في نصابها تذكَّرتُ تقريرًا أصدرتْه مؤخّرًا إحدى منظّمات الأمم المتحدة يُثْبت أنَّ الجنود والمستوطنين الإسرائيليِّين قد قَطَعوا عشراتِ الآلاف من الشجر منذ بدء الانتفاضة الأخيرة. وهكذا يبدو أنَّ غرائز القتل المنْفلتة من عقالها لدى الجنود والمستوطنين الإسرائيليِّين فاضتْ عن كل حدٍّ؛ فهم لم يعودوا يكتفون بارتكاب المجازر البطيئة ضدّ الفلسطينيِّين بل راحوا يَهْدفون إلى إفناء كلّ شاهدٍ على جذورنا في هذه الأرض، نافين بذلك حقَّنا كأمَّةٍ في المستقبل. إنَّهم لا يقفون عند حدِّ تدميرِ قبورِ أسلافنا، أو تحويلِ جوامعنا وكنائسِنا العتيقةِ معابدَ لهم أو مقاهيَ أو أيِّ شيء آخر مادام غيرَ عربيّ، بل يَسْخطون على العجائب الخضراء المُورقة التي

---

* ـ عنوانُ هذه القطعة، كما قد لا يخفى، هو قلبٌ للمقولة الصهيونيَّة الشهيرة التي تَزعم أنَّ الصهاينة سيَجْعلون «الصحراءَ تُزْهر» Make the desert bloom. وهذه القطعة أُرسلتْ بالإنجليزيّة عبر الانترنت. (المترجم)

** ـ طالبٌ دكتوراه فلسطينيّ في مادة الفلسفة من «جامعة تل أبيب» في فلسطين المحتلّة. يقيم في رام اللّه، وهو مدرِّبٌ «فرقة الفنون الشعبيّة الفلسطينيّة.»

أبدعتْـهـا ـ بكدٍّ وعناءٍ ـ أجيالُنا المتعاقبةُ على تلالِ فلسطين ووديانِها: من بساتينَ، وغياضٍ، وأشجارِ زيتونٍ مميّزةٍ داكنةِ الخضْرة، وصبّارٍ فخورٍ عنيد.

إنّ الصهاينةَ ليُضْمرون حقدًا مقيمًا على شجرات الصبّار تلك بنوعٍ خاص. فمنذ أن زيَّنَ الفلاّحون الفلسطينيُّون أراضيَهم بالصبّار غدَتْ هذه الشجراتُ الشائكةُ المنيعةُ «موتيفًا» مدهشًا للمناظر الطبيعيَّة الرعويَّة على امتداد فلسطين. ذلك أنَّها كانت الحدودَ الطبيعيَّة للمنازل أو للأرض، بل وللقرى والدساكر أيضًا. ولهذا استُهدفتْ على الفور بالاستئصال، لكونها من بين قلائل بَقُوا شاهدين على الحضارة التي ازدهرتْ يومًا، وعلى الأرض التي كانت فيما مضى خَصْبةً ومغذِّية. ولعلّ مستوطني اليوم يحاولون أن يَبْعثواالذكريات التي لم تُنْسَ لما فعله أسلافُهم في حملتهم الأولى.

ويَظْهر أنَّ معظمَ الإسرائيليِّين لا يعانون فقدانَ ذاكرةٍ انتقائيّاً مُزْمنًا فحسب، بل يعانون أيضًا عمًى جزئيّاً جَنَوْه على أنفسهم. فلا بدّ أن يكون المستوطنون اليهودُ الأوائلُ الذين وطئوا أرضَ فلسطين قد صُعِقوا لرويةِ ما سمّاه الشاعرُ الإنكليزيُّ في القرن السابع عشر جورج سانديز «أرضًا تَفيض لبنًا وعسلاً... مزيَّنةً بجبال جميلة ووديان مُتْرفة.»[1] ولكنَّهم لا ريب أنَّهم لاحظوا أيضًا شجراتِ الصبّار اللافتةَ، التي ظنُّوا ـ بعقولهم الأوروبيَّة ـ أنَّها لا تَنْبت إلاّ في الصحراء. ولهذا طَرَدوا من وعيهم كُلَّ ما سوى تلك الشجرات، ولقَّبوا أرضَنا بالصحراء أو بالأرض العاقر التائقة إلى «أيدٍ متحضِّرةٍ بيضاء» تَحْرثها وتُزْهرُها.

لكنّ شجرَنا أفْسَدَ أسطورتَهم عن الصحراء. فقد راح زيتُونُنا الطاغي الحضورِ يَحْكي التاريخَ الطويلَ الثابت لجذورنا الضاربة في أعماق الأرض. وجعل صبّارُنا يكْشف الحكاياتِ التي لم تُرْوَ أبدًا، والجرائمَ التي دُفنتْ تحت الأنقاض، والمئاتِ من القرى التي مُحِيتْ قبل ٥٣ سنةً. لم تكن تلك «المخلوقاتُ» الخضراءُ، إذنْ، متفرِّجاتٍ بريئاتٍ؛ بل هنَّ قاومن ـ بسلبيَّةٍ ولكنْ بضراوة ـ استعمارَ عقولنا وطمسَ ذاكرتنا. ولهذا كان على الأعداء أن يهزموهنّ؛ كان عليهم أن يقتلعوهنّ.

غير أنَّ محاولاتهم استئصالَ الصبّار مِنَ الأرض ومِنْ ذاكرتهم ذهبتْ أدراج الرياح: فقد عاد الصُّبّارُ إلى نموِّه وإيناعه. وحين يفهمون خصيصةَ الصبّار الإعجازيَّة تلك فسيبدأون فكَّ الشيفرات المعقَّدة لذاكرتنا الجمعيَّة الخصبة، ولصمودنا «الذي يَعْصى على التفسير،» ولرحلةِ بحثنا عن القيَم.

إنَّ الصبّار يعود إلى الحياة، ولكنَّ الزيتون ـ مثلَ أرواح البشر ـ لا يعود. وهذه الفكرةُ البسيطة، التي تملَّكتني رغم بساطتها، قادت محاولتي للهروب عقليّاً ممّا كان يجري في الشارع من قتلٍ وموجهات إلى خلاصة مفاجئة وقاسية: وهي أنّ على العقول والأيدي التي تصحِّر الزهرَ أن تُوقَف، وعلى تصحير العقل أن يُمنع من الانتشار.

**رام الله**

## الهـــــــدف

**د. كرميلا آرمانيوس عمري❖**

أثناء الانتفاضة الأولى كنتُ أشاهد التلفاز مع ابنتي (وكان عمرُها آنذاك حوالى ٧ سنوات) وهو يعرض جنازةَ امرأةٍ إسرائيليَّة قُتلتْ في إحدى العمليَّات الفدائيَّة. كان زوجُ القتيلة وأبناؤها يبكون في وداعها. ولكنّ ابنتي حاولتْ ألاّ تتأثَّر بحزنهم ودموعهم وقالت: «يجب أن نَقْتل الإسرائيليِّين انتقامًا لقتلهم لنا، ولكيْ يذوقوا العذابَ الذي نذوقُه عندما نودِّع شهداءنا. فهم المسؤولون عن مأساتنا، ويجب أن يدفعوا الثمن.»

لم أتمكَّن من التعامل مع هذه الحادثة. فمن ناحية، أعْلم أنَّ ابنتي تأثَّرتْ بالأعمال الوحشيَّة التي قام بها الاحتلالُ الإسرائيليّ: من قتلٍ للأبرياء، وهدمٍ للبيوت، ومصادرةٍ للأراضي، واعتقالٍ للمواطنين. ولكنِّي، من ناحية ثانية، لم أكن أرغب في أن يؤدِّي كلُّ هذا إلى أن تَفْقد ابنتي إنسانيَّتَها. أردتُ أن أقول لها في حينه: «إنَّ المنظر الذي نشاهده محزنٌ فعلاً، وليس من الخطإ أن نَشْعر بحزن عند قَتْل العدو، وإنَّ علينا أن نغضب مِنْ كلِّ مَنْ ساهم في أن يضطرنا للقتل للدفاع عن أنفسنا. ولكنَّ القتل أو الانتقام ليس هو الهدف، بل نحن مضطرُّون إليه كي ندافع عن أنفسنا.» ولكنِّي لم أفعل!

خلال الانتفاضة الأولى كنتُ أشاهد صورَ الشهداء يَحْملون البنادق، وكنتُ أشاهد شبابنا يتباهَوْن بسلاحهم، وكانت جميعُ الأحزاب السياسيَّة والأغاني تُشيد بحمل السلاح وببطولة كلّ مَنْ يمتشق السلاح. أنا لا أُنْكر ضرورةَ الإشادة ببطولةِ كلِّ مَنْ يُقدّم حياته في سبيل تحرير الوطن، ولكنَّ هناك خطرًا من وقوع التباسٍ بين الهدف والوسيلة: فالهدف هو تحرير فلسطين، وحملُ السلاح هو وسيلةٌ للوصول إلى هذا الهدف.

قبل شهور سمعتُ عن امرأة فلسطينيَّة وَقَعَ ابنُها شهيدًا برصاص الاحتلال الإسرائيليّ. امتنعت المرأةُ عن البكاء لأنَّ

١ ـ Edward Said, **The Question of Palestine** (New York: Time Books), 1980, p.11.

❖ ـ نائبة رئيس جامعة بيرزيت للشؤون الإداريَّة والماليَّة منذ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٩. حازت دكتوراه في الرياضيَّات من جامعة غرب أستراليا (١٩٨٠)، ودرّستْ هذه المادة في جامعة بيرزيت بين عامَيْ ١٩٩٣ و ١٩٩٩. وُلدتْ في حيفا، وتحمل جوازيْ سفر «إسرائيليّاً» وأوستراليّاً، وتعيش في رام الله.

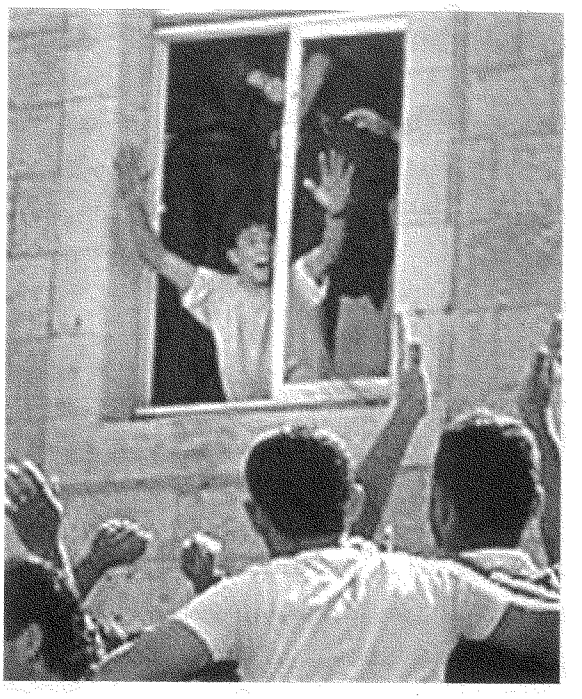

عليها أن «تفتخر» بموت ابنها شهيدًا للوطن، ولاسيّما أنّ زوجها أعْلمها أنّ بكاءها على فقدان ابنها معناه أنّها ليست فخورةً به وقد يؤدّي إلى أن لا تلتقي به في الجنّة! حَبَست المسكينةُ دموعَها وداست على مشاعرها الإنسانيّة احترامًا لابنها الشهيد. ولكنْ تُرى: هل يمكنها أن تواصل حياتها الطبيعيّة وهي لا تملك حقّ التعبير عن شعورها؟

تؤلمني قضيةُ هذه المرأة، وتخيفني فكرةُ الهالة الكبيرة التي نُضطرّ إلى وضعها حول المناضلين حفاظًا على صمودنا؛ فهذا كلّه يَحْرمنا إنسانيّتنا ومشاعرَنا. ثم ما هو الأثر البعيد المدى لمثل هذا الحرمان؟ أليس من الممكن أن يؤدّي إلى تحويلنا أشخاصًا لا يَأْبهون بتعذيبٍ أو قتلِ إنسانٍ آخر بهدف الانتقام؟

كثيرًا ما نشاهد جثةَ شهيد مشوّهةً، ونتعمّد ذكرَ كلّ التفاصيل المتعلّقة بإصابته من أجل إظهار وحشية الاحتلال الإسرائيليّ، غيرَ مكترثين بشعور أهل الشهيد الذين يعيشون ألم جراحه وموته مرةً تلو الأخرى كلّما شاهدوا هذه التقاريرَ الإخباريّة. في أحد التقارير أَمْسك المراسِلُ برأس أحد الجرحى وأزال عنه الضمادات بقسوة لكي يُظهر للمشاهدين مدى الإصابة، غيرَ منتبهٍ إلى أنّه بذلك سبّب ألمًا للجريح وتعامَلَ معه كقطعة أثاثٍ لا مشاعر إنسانيّة لها.

لا أعتقد أنّ هذه هي مشكلةُ الشعب الفلسطينيّ وحده. فلقد أسهمت الشعوبُ العربيّةُ وكلُّ وسائل إعلامها في تشجيع هذه المواقف والإشادة ببطولة الشعب الفلسطينيّ، حتى نسينا أنّ هذا الشعب هو ضحيةُ **أولاً** ومناضل **ثانيًا**. ومن المؤسف حقًا أنّ الإعلام الغربيّ يترجم بطولتنا هذه إرهابًا، فتَظْهر إسرائيلُ وكأنّها هي الضحيّة.

لقد سَلَبَ الاحتلالُ الإسرائيليُّ الشعبَ الفلسطينيَّ أرضَه وحريّتَه وحياةَ الكثيرين من أفراده. فلا يجوز لنا أن نسمح له بأن يسلبه إنسانيّتَه أيضًا.

**رام الله**

---

# أعـزف أو لا أعـزف؟

*سهى برغوتي*❖

صديقي سماح،

تحية لك، بل لكم. تحيةً تمرّ في شعاب الجراح التي تَزْخر بها روحي، بل أرواحُنا، في هذه الفترة من عمر الوطن.

أكتب إليك بيد معفّرة بالحزن، متجاوزةً سؤالَ المصير وسؤالَ البقاء إلى سؤال أبسط ولكنه أقسى حتى من اللحظات التي كنتُ أخترق فيها حوارَ الرصاص والقذائف وأتوشّح بحرارة المواجهات والاشتباك اليوميّ متسلّحةً بذاكرة الإرادة التي تَقْتحم السماءَ وَتَنْبذ خيار الرضوخ في انتفاضة عام ١٩٨٧.

سؤالٌ يُحْرق روحي، كما حروقَ جسدي، الناجمةَ عن قنبلة قذفها على صدري جنديٌّ احتلاليٌّ حاقد عام ١٩٩٦ استهدفت القلبَ الذي بقي نابضًا.

سؤال يتعلق بماهية علاقتي بالوطن الآن، الوطن الجغرافيا، التاريخ، الناس. الوطن الحرية، الفرح، الرقصة، الإبداع، الكلمة. الوطن الذي علّمني كيف أغضب، وكيف أحب، كيف أرقص وكيف أتمرد وأناضل، وكيف أدافع عن كرامتنا وحقنا بوردةٍ وبسمةٍ وأغنيةِ حبٍ على أرض محررة.

الوطن الذي تجلّى أمامي بصورة الراحل جمال عبد الناصر، التي أَذْكر وأنا طفلة كم دافعتْ أمي بشراسة من أجل إبقائها معلّقةً على صدر بيتنا العتيق.

الوطن الذي تجلّى في سبعة عشر عامًا ارتبطتُ خلالها بزواج سريّ من شخصٍ مطلوبٍ لسلطات الاحتلال.

الوطن الذي كان يُدفئني عندما أرتعد بردًا وخوفًا، وأنا أنقل البياناتِ السريةَ أو أكتب الشعارات على جدران الشوارع.

الوطن الذي صلّبني في تجربة اعتقال وتعذيب في زنازين كريهة، وزَرَعَ بريقَ التحدي في عينيّ اللتَيْن تنظران إلى وجوه رجال المخابرات الفاشيين.

---

❖ - مناضلةٌ، وإعلاميّةٌ، ومديرةُ «فرقة الفنون الشعبيّة الفلسطينيّة» التي زارَتْ لبنانَ الربيعَ الماضي، وزوجةُ المناضل الكبير أحمد قطامش الذي تخفّى ١٧ عامًا عن عيون الاحتلال الإسرائيليّ.

الوطن الذي تجسّد في جنازة كل شهيد، وفي تجاعيد حَفَرَتْها السنينُ على وجه أمٍّ تقف خلف قضبان الأسر، وفي محاولات ابنتي الجاهدة لأن تلامس أصابعُها الصغيرةُ أصابعَ والدها خلف شَبَكِ الزيارة المزدوجِ في سجن «النقب» الصحراويّ.

الوطن الذي أعرف تمامًا أنّ الطريق إلى تحرره من الأسر مازالت طويلة جدًا ودامية جدًا.

الوطن الذي بدون تضافر كل الشرفاء في الوطن الأكبر لن يُكتب له الانفكاكُ من أسره.

الوطن الذي تقطعتْ أوصالُه إلى مدن ممزقة، وغرقتْ أشجارُه بدموع الثكلى ودماء الشهداء.

صديقي،

أكتب إليك وأدعوكَ لأن تقلّب معي صفحات روحي الحزينة، متكئةً على ذلك الدفء الذي شعرتُ به ـ بل شَعَرْنا به ـ في نيسان عام ٢٠٠٠ عندما تحقق حلمُ «فرقة الفنون» بحضورنا إلى لبنان.

وهناك بدأ السؤال في لبنان، في كنف أسوار صور التي لا تختلف عن أسوار عكا، وقبل أربعة أشهر من اندلاع الانتفاضة الحالية. سؤال: ما العمل؟ كيف نتعامل مع معضلة الواقع الأليم واللئيم والحلم المشروع؟ كيف نُوضح أنّ العودة لمخيمات اللجوء (هناك) بعيدة وبعيدة جدًا، مع أنّها مشروعة بكل المعاني التاريخيَّة والحقوقيَّة والأخلاقيَّة؟ كيف نفسِّر الواقع دون أن نَضْرب الحلم؟

هذا السؤال تزاوج مع سؤال آخر بدأ منذ فجر ٢٠٠٠/٩/٢٨، وتواصل مع كل جنازة شهيد وبطولة شاب يندفع باتجاه حواجز الموت وكأنها بوّاباتُ الحرية.

إنني أتساءل دومًا لماذا لا أشارك بقوةٍ في فعاليات الانتفاضة الحالية؟ لماذا لم أعد أتوحّد مع الحجر والهتاف؟ أين ذهبتْ تلك الحرارةُ والعنفوانُ والانغماسُ في الهمّ العام؟

فأسلاك الاحتلال مازالت تَفْصل الإنسانَ عن بيئته ومداه، ومازالت النار تَحْصد أبناءَ الشعب، ومازال اللجوء، ومازال التشرد، ومازالت عينا ابنتي «حنين» المتحفِّزتان والخائفتان تدعواني يوميًا للتقدم إلى الأمام.

إذًا لماذا هذا البطء؟ لماذا هذه العقلانية الخارجة عن نسق شخصيتي؟ أهو الخوف من الموت؟ ربما، ولكنّ سيمفونية الموت لا تعني لي شيئًا لأنني أعيش بوقت إضافيّ بعد أن كدتُ أرحل عام ١٩٩٦.

أهي رغبتي في الحياة المرحة المنطلقة المرفّهة؟ ربما، ولكنني طالما أحببتُ الحياةَ والانطلاقَ حتى في أحلك الظروف. ومن طريف النقد الذي وُجِّهَ إليّ سابقًا أنني كنتُ أعتني بمظهري حتى أثناء توجهي إلى المظاهرات أو للتحقيق في الزنازين الاحتلالية.

أهو خوفي من أن أعرِّض ابنتي «حنين» لمزيد من الصدمات، خاصة أنها قضت طفولتَها بين زياراتِ السجون وإصابةِ الأم واعتقالِ الأب ومداهمةِ الاحتلال للبيت أكثرَ من مرة؟ ربما.

أهو التوق الفطريّ إلى الاستقرار بعد ثلاثين عامًا من الاندماج بمتطلبات العمل؟ ربما.

ألأنّ الشروط وأساليب النضال اختلفت، فلم تعد مطلوبةً الرسالةُ السريةُ أو البيانُ أو الكتابةُ على الجدران لتعميم توصيات «القيادة الموحّدة،» كما انتهى دورُ لجان الأحياء واللجان الشعبية والتعليم الشعبيّ والتكافل الأسريّ؟ ربما.

أوقعتُ في فخ المقارنة بين الانتفاضة الكبرى والانتفاضة الحالية؟ وهل هي مقارنة مشروعة من حيث الدوافعُ والأهدافُ والقناعةُ وممارسةُ هذه القناعة على الأرض؟ ففي معرض نقاشي مع إحدى المناضلات القدامى قالت ببساطة وعفوية متناهيتَيْن: «في الانتفاضة الأولى كنا ندرك كيف ولماذا نناضل، ولكن الآن... !!» ربما هذا هو السبب الأبرز.

فالوطن يعني الالتزامَ، يعني القناعةَ التي تشكّل الحافزَ والدفقَ والاندفاعَ، دون التفكير في أية حسابات وأية عقبات وأية تبعات.

أتوق للنضال، وأَخْجل من نظرات «ملاك» و«شهيد» الطفليْن اللذيْن استُشْهدا قبل أيام إثر تفجير الاحتلال منزلَهما في رام الله؛ وأنحني احترامًا لكلّ ساعد يرمي حجرًا ويَحْمل مقلاعًا. ولكنّ عقلي يَرْفض فكرة أن أكون قربانًا لمكاسب سياسية ضحلة.

يقْهرني أنّ الجرحى والثكلى والمناضلين لن تَسْنح لهم فرصةُ المشاركة في قرارِ متى وكيف وإلى أيّ سقفٍ ستُستَثْمر هذه التضحيات.

فسؤال البقاء أو سؤال المصير يجب أن يَخْرج عن إطار الفرد، مهما كان وأيّاً كان.

ولكنْ، يزاحم تداعياتي صوتٌ يخرج من عمق الألم الذي أشعر به اليوم بعد قيام مجموعة فاشيّة من قوات الاحتلال الخاصة بإعدام خمسة شهداء من جهاز الأمن الوطنيّ قرب رام الله.

هذا الصوت يَقْرع بابَ الخزّان ليذكّرني بأنّ الاحتلال أساسًا هو مشروعٌ استعماريّ غربيّ بدأ منذ نابليون الذي دعا إلى إعادة بناء مملكة أورشليم، مرورًا ببريطانيا بلفور. وهو المشروع ذاته الذي أَنْتج حركةَ هرتزل ودولةَ بن غوريون وصولاً إلى سلطة شارون.

إنّه الصراع الوجوديّ، صراعُ النقائض، الذي يحتّم عليّ اختيارَ جدلية الحياة على صمت الموت، والانحيازَ بكل عزم إلى قوة الحق.

أختار أن أَعْزف مع آخرين معزوفةَ عدالتنا ومنطقنا ورؤيتنا، بدلاً من التوقف عند استنكار نشاز «السلام» الحاليّ.

هنا أتوقف. وإلى تفاعل آخر، حيث يغوص حضورُكم فينا، يا من شرّعتم لنا بوّابةَ الآداب كما شرّعتم لنا سابقًا أفئدتَكم وعقولَكم.

وبالرغم من التساؤلات نقول: نعم لتناغم الجزء بالكل، نعم للفرح والأمل، نعم لقطار الزمن. أوَنقول أيضًا إنّ الأيام الأجمل لم تأت بعد ؟

كل التحية.

# تساؤلٌ تَجَسَّمَ عبر قنطرة مستوية

د. كميل حنا مخّول❖

تحتّ الخطى بحثًا في الزمن الكتوم الذي حطَّ، فحطَّم، فتحجَّر، فامّحى من الذاكرة. عادت لتنتزع منه تساؤلاً لم يتفجَّر، علّها تعود لذاتها بجواب، وتعود بمَعْلم فمَعْلم فطريق... ووصلتْ!

تقف على عتبة البيت، لتدخل إلى الخارج، أو لتخرج إليه سيّان، عَبْر قنطرةٍ ما زالت متماسكة. وأكوامُ الردم تحيل القنطرةَ عينَ أمٍّ تترقب، تجوب المسالكَ ظمأى لظل أنيس.. وتشيح بنظرها عن ملامح درب لم يعد دربًا حين امّحتْ كلُّ معالم الطريق. فلم يبق غيرُ بضعة «بيوت شوك» تشبثتْ بمزَقِ مناديل الجارات، وبلعبة طفلٍ رأسُها حصوةٌ حوصرتْ بقصاصةٍ من زيّ عتيق. ويلوح من بعيدٍ حبلُ غسيل صُفَّتْ فوقه الأثوابُ خشيةَ الجفاف، تَنْفض عنها شمسَ حصادٍ لافحة، لئلا تزيّف لونَها الناعسَ فتحيله مهينًا وفاضحًا.

وقفتْ، والعتبةُ تحت قدميها هي الحقيقةُ الوحيدة التي صقلتْها الأقدامُ يومًا بعد يوم، وجيلاً في أعقاب جيل. هي قطعة الحقيقة الباقية، تُسْند إليها شظايا الحقيقة ـ شظايا الحقيقة كلها! وكان فزعٌ، وكان جزعٌ، وكان سكون.. ولم يك الربُّ قد خَلَقَ السؤالَ بعد.

ما جرؤتْ أن تحدِّق إلى شيء، بل بعثرتْ نظرةً إلى أشيائها الفزعة. تقاعستْ حيال تزاحُم الملامح التي اقتحمتْها. وإذ أدارت رأسَها ببعض قسوة لتستلّ ناظريْها من هذا الزحام أخذتْ أشياؤها تنداح وتتحرك ويرتطم بعضُها ببعض، كأنما تتراكض هي الأخرى لترحل. وشظايا الوعي التي تناثرتْ اتّسقتْ في بُعدٍ آخر تصاعديّ، تَنْتشر عليه الذكرياتُ، وقطعُ ذكرياتٍ ما أُمهلتْ لتكتمل، وتدلّتْ منه آمالٌ مبتورة وآثارُ طموحات تنزلق إثر دمعة كتومة وإثر زفرة تغلي. وكان سكون.

كأنّما اتكأتْ، لا تنضح فزعًا لثقل ذاك الفزع، ولا تُبدي جزعًا لعمق هذا الجزع. جمعتْ عينيْها كلتيْهما، وغرزتْ نظرتَها في أظفارها. وبحسرة ما زفرتْها رئتان قطّ، تلهفتْ لهفةَ عشرين جيلاً ومجازر!

ليت يا مرنوش[1] قد طالت أظافرنا!

ليت يا مرنوش قد طالت أظافرنا!

أنا ما ادَّخرتُ لهم كلامًا ما استهلكتْه مآسي الناس...

وما طالت أظافرنا!

لهفي على عينٍ تعاتب: «أين كُنتم!»

لهفي على زند توّعد: «كيف هِنْتم!»

ليت يا مرنوش قد طالت أظافرنا، لنقول: كنا في سبات!

فأنا ما عدتُ أفهم! ألسنا نتحدر ممن تعقّبوا الدّيم حين تمنَّعتْ، فابتغوا خراجَها؟ أم أنّا نتحدر ممن أناخوا الوعيَ اذ سقفوا السماءَ لتنبسط، لنصطاد التاريخَ والغَيْمَ والتقدمَ والدِّببةَ والغلبةَ والسلطانَ المسلول والرحمةَ والنصرَ المقدَّم والمؤخَّر، فكدنا نرتطم بالصخر الذي بُنيتْ عليه، والصخر الذي يُمتطى في الحلم الكبير ليحوط أمواهًا تضيق المحيطاتُ عن بلعها، وقد وعدنا بأن يدفقها طوفانًا يهول البغاة مذ اشتبقوا التفاح وهمّوا به.. إلى أن تشقق ثرى المستنقعات وديست القمم؟!

كنا نَرْصد النجوم، ونسترق النظرَ إلى «بنات نعش» حين سرين على درب التبن، وإذ باثنتين تتخلّفان وتختفيان خلف ثنية الهزيع، فتثيران همسَ الأخريات ببعضِ إثم أو ببعض ظنّ. وكانت العيون شبقةً تزدرد الأبعادَ، وكانت الآذانُ مُرهفةً سكرى بلذة هذا الهمس. وانتظرنا، وانتظرنا، وعلا الضجيج، واشرأبّتْ أعناقُنا، وخفَّتْ كثافتُنا، وتسامى صبرُنا، فالهمسُ صار صاعقًا، وعلا ضجيجُ الرجم.. ويا مرنوش، ما ظلوا وما طالت أظافرنا! ما عُدتُ أفهم يا مرنوش كيف تُحزمَ الملامح، بل كيف

---

❖ ـ باحث في البيولوجيا الجزيئيّة البنيويّة، الجليل الأعلى، فلسطين المحتلّة.

١ ـ أحد أهل الكهف في مسرحية **أهل الكهف** لتوفيق الحكيم (١٩٤٠).

تُهزم الملامح، وكيف يَهْجرنا الوطن. رحلوا.. وقد رحل الوطن.
والحق أنّا لم نعيِّن نواطيرَ للوطن! ولما نعد فزاعة للكَرْم بلهاءَ مثيرةً.. إنما صرنا ـ وقد رحلوا ـ علامةَ مسّاح تشي بموقع اقتطاع مَنْ رحل!
رحلوا.. وقد رحل الوطن!
ما زلتُ أَجْهل يا مرنوش مَنْ منهم يلاحق مَنْ..
رحلوا وفوق أكفّهم وطنٌ ما دَجَّنوه وما ترجّل!
وطن يلاطِمُ مخرزًا في كل ساح
ولكلّ ساح مخرزُه
فيفرّ من قَصْرٍ لشهرٍ قاتم
ويفرّ من هَرَمٍ يطارد فجرَه
ويفر من تلٍّ يكبّل معصمَه
ينسلّ من كل الوثائق والمنابر والخطب
ويشدّ كلَّ مفاصِله
ليعود يُلْطم مخرزًا في غير ساح
كي ما تُخطّ الخارطة...

لهفي على طفل يقاتل!
لهفي على زمن سيأتي ويسائل:
كيف اختزلْتَ لذاك الطفل تحليقَ الطفولة
وكيف شددتَ في خدّيْه مرونةً تضحك
وكيف وأدتَ في عينيه طاقات الفرح؟

أَذْكر يا مرنوش، لكنْ لستُ أفهم! عندما انقضّ الفضاءُ الرحبُ صاعقًا كما بدا، ليُطْلق ما حوصر منه تحت السقوف وبين خلايا قمح وسكر، كانت عيونُ الأطفال تَعْبث به عبر دهور، فيحدِّد الأحلامَ والهويةَ والملامح، ويؤكد الانتماء ـ كلما رحل مساء...

وأتى!
ما شذّ عن حشد الأماسي إذ أتى
يتلوّى.. يتثاءب
يلملم ما تساقط من تفاصيل النهار
ويَرْكنها تحت الوسائد خلسةً
تلهو بها أناملُ الليل
لتحيك منها لكل عينٍ حلمَها
وتمدّه بما اتفق
كيما تملّ النومَ عينٌ تتحفّز للفرح!

وأتى..
ما شذّ عن حشد الأماسي إذ أتى
إنما.. طال المساء
كلما ظنوه ينأى يتجدد
وتراءى لهم أضغاث نوم
وعندما نسف المعالم قد تجسّد!
وجاء مِنْ بعد المساء
ما شذّ عن حشد الليالي حين جاء
فلم يلملم غيرَ أعقاب المِحَن
ويركنها بين القناطر جمرة
ليفجّ منها بعض وعي للحقيقة!
ووعيت يا مرنوش حين أقصَوْا ذاتَنا عن ذاتنا
يوم استباحوا همسَنا وصادروا أسرارَنا
فباعدوا ما بين أمس والغد
وسمّروا آهاتنا
وشوّهوا أسماءنا واستنسخوا سِماتنا
كم تاقت الآذانُ فينا لبعض همس
فقاومْنا وقاومْنا لنحفر بعضَ ذاكرة وديعتنا إلى المطلق
نُوائمها بأمنية
لعلّ النفعَ في الذكرى.
فلم تورقْ أمانينا
ولُذْنا بالفرار إلى فيّ المنابر
لنُسقى كأسَ تدجين الضمائر
ونسلكَ نهجَ تفريغ المهج
لعلنا نمسي الحدود.
وهناك يا مرنوش قد زّجوا بطموحي وغدي في دائرة
لأجوب محورَها العقيم
مسبِّحًا لله أني «الحدّ»
فإنْ حل القرار يقول: ذاك الحدّ... فلأُقِمْ ميعادَهم!
وصحوتُ،
وصحوتُ يا مرنوش حين تفتّح الحجرُ الملفَّعُ بالركام وبالأماني
وهَبَبْتُ أهتف لدروبٍ دافقاتٍ صوب أصفاد الوطن:
تموز[1] قام مظفّرًا

---

١ ـ الإله المحيي الخيّر في أسطورة جلجامش السومرية. كان يكرَّم في الخامس والعشرين من يناير احتفالاً بتحرره من قيود مملكة الموت (البرد). وتبدأ الحيوية تدبّ في عروق النبات والأحياء بتحرره.

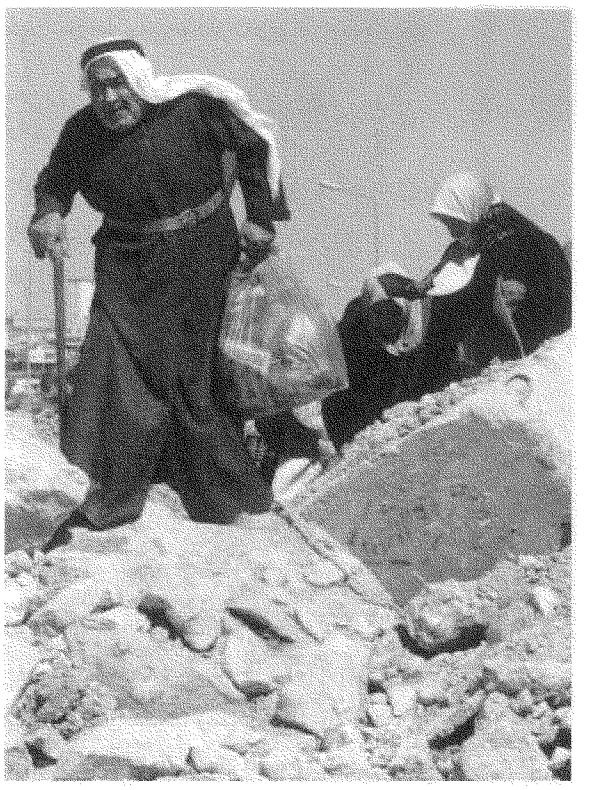

تموز عاد!
تموز قام مظفّرًا
تموز عاد لألتئم
تموز قام لألتحم
تموز قام مظفّرًا
تموز عاد!
فنفضتُ خوفي والتزاماتِ البرامج الهجائن
وعدوتُ أختزلُ المسافات الطويلة من غدي المتجمّد!
عشتار[1] وافتني بأحمال من الزمن الخصيب
لأُعيد تخطيط الدوائر مَسْلكًا لطفولة تتمهل!
فرقّصت دمعي، والمجازر
وشدوت كبتي وجراحي وحنيني
وصلبت أنّاتي مسمّرة
جسرًا لغدٍ حتمًا سيغرق في الضحك!
تموز قام مظفّرًا
تموز عاد!
تموز قام مظفّرًا
تموز...

وجننتُ!
وجننتُ يا مرنوش إذ بدا يفتاح[2] يبني مذبحه
لم أدرِ أنني كنتُ أولَ مَنْ يهبّ ومَنْ يزغرِد في الشوارع
حتى انبرى يفتاح يُشعل مذبحَه!
ليضحي بكْرُ أفراحي أضحيةً في المقصلة!
عشتار عادت كي تلملم حملَها:
تموز غاب.. ولن يعود
فزفرتُ خوفًا وقد تعتّق في ثناياي وأشقى
تموز غاب ولن يعود!
عادوا وقد رحل الوطن!
ولما أعد فزّاعةً للكرم مثيرةً
فهناك يا مرنوش قد زجّوا بغدي في الدائرة
لأجوب محورَها العقيم مردِّدًا للناس
أني جزء الذي ما ينبغي أن يلتئم
وأجوب محورها العقيم تهيؤا للقادم
من زمن يعيدني دائمًا للحاضر!
اليوم يا مرنوش يمكنك الرقادُ المستطيل
فأنا مسجّى في فراغٍ لولبيّ
لا هتافي قد يقض مضجعًا
ولا سؤالي يستثير الثائرة
هوذا يفتاح يقايض أن تسوى القنطرة
بطيّ أمسي وغدي والذاكرة
الآن يا مرنوش قد زجّوا بغدي في الدائرة
يفتاح خطُّ الدائرة
يفتاح خطُّ الدائرة!

**مخول ـ البقيعة**
**(أعالي الجليل)**

---

١ ـ إلهة الخصب.

٢ ـ الملك القائد الذي نصره الإله في معركته الفاصلة ضد عدوه، فنذر أن يقدّم أولَ كائن حيّ يصادفه في مداخل مدينته ـ مملكته ـ قربانًا. ويشاء القدر أن تكون ابنتُه ـ وحيدتُه ـ هي أول مَنْ يهبّ فرحًا لملاقاة أبيها المنتصر. (**بنت يفتاح**، لسعيد عقل)